مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (2)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (2) 2018

منهج البحث اللغوي عند الأخفش والفرّاء في معاني القرآن

كندة قاسم*

(تاريخ الإيداع 21 / 2 / 2018. قبل للنشر في 5 / 4 / 2018)

□ ملخّص □

يحاولُ هذا البحث أن يكشف عن منهج البحث اللغوي بين عالمين كبيرين متعاصرين، ينتمي احدهما إلى المدرسة البصرية وهو الأخفش سعيد بن مسعدة وهو لغوي عصره، والفرّاء أعلم أهل الكوفة بالعربيةِ بعد الكَسائي.

ويبيّن هذا البحثُ أسس الدراسات القرآنية ومنهجيّة البحث فيها خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، وبهذا يمكن أن نستنتج أنّ مضامين هذه الكتب لغوية تُعنى بالقراءات واللهجات وما فيها من مسائل نحويّة وصرفية وتفسيرية.

الكلمات المفتاحية: منهج البحث اللغوي – الفرّاء – الأخفش.

* طالبة دكتوراه– قسم اللغة العربيّة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (2)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (2) 2018

Method of Linguistic Research approach between AL-AKHFASH and AL-FARRAA in Quranic meaning.

Kinda Qassem*

(Received 21 / 2 / 2018. Accepted 5 / 4 / 2018)

□ ABSTRACT □

This research attempts to reveal the methodology of Linguistic research between two great and contemporary scientist, one of which belongs to the Visual School، which is the shy I b n masَ a da، the moth important of the linguists of his time, and al- farraa understand people of ku fa in Arabic after AL-ksaie.

This research shows the foundation of Quranic studies and the methodology of research during the second and third centuries AH, and thus wecan conclude that contents of these books is a language related to reading and dialects and the issues of grammatical، morphological and interpretive.

Key Words: method of linguistic Research، AL- Akhfask-AL- FArraa.

***postgraduate student، Arabic Department of Arts and Humanities، Tishreen university، Latakia، Syria**

مقدمة:

إنّ الحديث عن مناهج البحث عديدة ومتشعبة، وأصبحت تشغل بال الباحثين على مختلفِ اختصاصاتهم فلا يكاد أيّ بحث جامعي في الوقت الراهن أن يخلو من الخضوع لمنهج معيّن.

لذلك فالبحث في أصول اللغة و النحو قبل عصر السراج يعني البحث في الأسس الأولى لهذا العلم ، والكشف عن الاجتهادات المبكرة التي يرجع لها الفضل في وجوده أصلاً، هذه الاجتهادات والآراء التي بدت متفرقة متناثرة على يد كثير من علماء هذه الحقبة والذين يمثلون أعلام البصرة والكوفة .

وما يهمّنا في بحثنا هذا هو المنهج اللغوي بين عالمين ينتميان لمدرستين مختلفتين.

أهميّة البحث وأهدافُهُ:

تظهر أهمية البحث في الكشف عن منهج البحث اللغوي في معاني القرآن بين عالمين متعاصرين، الأول ينتمي إلى المدرسة البصرية (الأخفش الأوسط) والثاني ينتمي إلى المدرسة الكوفية (أبو زكريا الفرّاء)، ومن هنا يُظهر البحث الإسهامات التي قدّماها في مجال اللغةِ والنحو، وتوثيق الآراء النحويّة التي نسبت إليهما بالاعتماد على ما جاء في كتابيهما، والتحقّق مما نُسب إلى الكوفيين والبصريين من مصطلحات دلّت عليها آراؤهم النحويّة.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهج الوصفي ، فحاول تجميع آراء كلّ من الأخفش والفرّاء واتجاهاتهما المنهجية، وموقفهما من القراءات القرآنية ومصادر ذلك الاستشهاد.

إنّ الدراسات النحوية من أهم الدّراسات التي نشأت وترعرعت في ظلّ القرآن الكريم، فضلاً عن الدّراسات البلاغيّة، فالمعروف أنّ النحو والبلاغة هما علمان قرآنيان في أصل نشأتهما، وقد ظهرت مصنّفاتٌ ربطت بين الدّرس النحوي من جهة والدّرس البلاغي من جهة أخرى، فضلاً عن الومضات التفسيريّة ومنها كتب معاني القرآن.

وبعد منتصف القرن الثاني الهجري اختلط بالعرب العجم فظهر اللحن وشاعت اللهجات حتى وصل اللحنُ إلى الخاصّة، فدخل هذا اللّحن إلى قراءة القرآن فخاف العلماء عليه وكان هذا بعد أن امتدّت العجمة إلى لسان الناطقين بالعربية وسعت الشعوب الدّاخلة في الإسلام إلى تعلّم لغة القرآن حتّى تتعرّف أحكام الدّين الجديد.

إذْ دعت الحاجةُ إلى تقريب معاني القرآن من الأذهان، إلى أن تنطلق حركة التأليف حول القرآن ومعانيه والتعرّف عن أنماط أسلوبه.

والمعروف أنّ وراء كلِّ كتابٍ من كتب معاني القرآن قصةً تتضمّن السبب الذي دعا المؤلّف لاختيار المعاني كميدانٍ للتصنيف، غير أنّ تتبّع حركة التأليف عند أصحاب المعاني ممّا ذُكر في كتب التراجم إلى حدٍّ ما أن يقودنا إلى استنباط مجموعة من الأسباب والدّواعي التي أسهمت في إيجاد تلك الكتب التي تُعنى بحقل الدّراسات القرآنية والّتي عُرفت بمعاني القرآن ومن أهمّ تلك الأسباب:

1 - الانتصار للمذهب:

ينتمي معاني القرآن لمدارس نحويّة، ومن البديهيّ أنّ كتبهم زاخرة بتقرير أصول مذهبهم في النحو أو التّفسير.[1]

2 - مجالس الخلفاء والوزراء:

ومن الأسباب أيضاً مجالس الخلفاء والوزراء إذْ كان من المعروف أنّ الخليفة أو الوزير ينتقي مجموعةً من العلماء كي يحضروا مجالسه أو يعلّموا أبناءه، فكانت تُجرى بينهم حوارات ويطلب منهم أن يجدوا أجوبةً عن أسئلةٍ حولَ القرآنِ ومعانيه وهذا ما حصل مع الفرّاء على ما ذكره ابن الأنباري.[2]

3 - الحاجةُ إلى التفسير اللغويّ:

إنّ الحاجةَ إلى التفسير اللغويّ من الأسباب التي دفعت إلى التأليف في معاني القرآن، والذي دعا إلى الكشفِ عن سرِّ العبارة القرآنية، والتأمّل في معناها، وتأويل بعض الآيات، وبيان مدلولاتها في ضوء الدراسة اللغويّة والنحويّة.

ويعدّ كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت نحو 210هـ) أولَ كتابٍ يمكن أن يصنّف من كتب معاني القرآن، ومن الصّعب تماماً تصنيف هذا الكتاب وتحديد اتجاهه بدقّةٍ، وهل هو في البلاغة، أم في تفسير ألفاظ القرآن الكريم، أم هو كتابٌ لغويٌّ عامّ، إذ لم يلتزم قيود مدرستي البصرة والكوفة لفهم النّصوص العربية، والحقيقةُ أنّ مثل هذه الكتب تُعدُّ كتباً موسوعيّة تشتمل على غير علمٍ من علوم العربيّة.

1 - منهج الأخفش الأوسط في بيان معاني الألفاظ القرآنية:

لم يكن كتاب الأخفش الأوسط (معاني القرآن) كتاباً في تفسير آياته، وبيان أحكامه، ومعانيه، وإنّما قُصد به التفسير النحوي للقرآن، وهذا واضحٌ من منهجه في تناولِ الآيات القرآنية، فهو من هذا الباب لم يكن ليهتم بتفسير الألفاظ القرآنية الواردة في الآيات التي يتناولها، ولكنّنا لا نعدمُ بعض تفسيراته لبعض الألفاظ القرآنية، ولكنّ هذا التفسير يأتي لبيان المعنى النحوي وخدمتِهِ، ومنه تفسيره لفواتح بعض السورِ، كتفسيره لسورة (ص) بقولهِ:

"وقال بعضهم[3]: (صادِ والقرآنِ)[4]، فجعلها من (صاديت)، ثمّ أمر كما تقول: (رامِ)، كأنّه قال: (صادِ الحقَّ بعملك)، أيّ تعمّدَهُ "[5] ،فتفسيره للفظة (صاد) ليس لبيان معناها لذاته، وإنّما لخدمة الغرض النحويّ.

2 - منهج الأخفش في الدّراسة النحويّة:

إنّ معاني الأخفش تُعدُّ مصدراً من مصادر النحو العربي بعد كتاب سيبويه لأنّه – الأخفش– لم يترك موضوعاً من موضوعات النحو العربي إلّا ودرسَه، أو ذكره في كتابه تفصيلاً أو تلميحاً، فضلاً عن موضوعات الصّرف والظاهر اللّغويّة.

وقد ظهرت شخصيّته جليّةً في آرائِهِ النحويّة الكثيرة والمهمّة التي أودعها في كتابه معاني القرآن، التي تمثّلُ مذهبه النحوي وخلاصة فكره في هذا العلمِ.

في كثير من الأحيان يوجّه الأخفش الآية توجيهات إعرابيّة على سبيل الحذف أو القياس على أصل لفظ الكلام، كما في قوله تعالى: (ومَنْ أظلَمُ ممّنْ منعَ مساجدَ اللهِ أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن

---

[1] ينظر: د.منير جمعة، معاني القرآن في التراث العربي، بلنسية للنشر والتوزيع، 2006م،ط1،ص73.

[2] ينظر: أبو البركات الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، 1386هـ، ص81.

[3] ينظر: الشيخ أحمد الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، تصحيح وتعليق علي محمد الضباع، د.ط، د.ت، ص 371.

[4] القرآن الكريم، سور ص، الآية1.

[5] سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، معاني القرآن، تح، د. هدى قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990، ط1، 1/20-21.

يدخلوها إلّا خائفين لهم في الدنيا خِزيٌ ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ [6]، إذ رأى أنّ قوله: " (أنْ يُذكَرَ)، مجرور بمن المحذوفة، لأنّها كثيراً ما ترد مع ذكر تصريفاتِهِ، أو أن يجعلها بدلاً من (المساجد) بقوله: إنّما هو: (منْ أنْ يذكر فيها اسمه)، ولكنّ حروف الجر تحذف مع (أن) كثيراً، ويعمل ما قبلها فيها، حتّى تكون في موضع نصب، أو يكون (أنْ يُذكَرَ) بدلاً من (المساجد)، يريد: ومَنْ أظلم ممّن منع أن يُذكر فيها اسمَه" [7]. فهو لم يقف عند توجيه إعرابي واحد بل ذكر الأوجه الإعرابية المحتملة للكلمة أو التركيب وكلٌّ محتملٌ جائز".

3 – منهج الأخفش في الآراء الصرفيّة والاشتقاقيّة:

النحو والصرف عند النحاة لا يفترقان ولا يختلفان لأن الصرف في خدمة القضايا النحوية، والأخفش في كتابه " معاني القرآن" لا ينفك متعرضاً للمسائل الصرفية من دراسته لبناء الكلمة، وأوزان الأسماء ومقاييسها الصرفية وتقلباتها ومن ذلك كلمة (أُسَارى) في قوله تعالى: (وإن يأتوكم أسرى تفادُوهم) [8] وقرئت (أَسَارى)، وذلك لأنّ (أسيراً) (فعيلٌ)، وهو يشبه مريضاً، لأنّ به عيباً كما بالمريضِ، وهذا (فعيل)، مِثْلُهُ ؛ وقد قالوا في جماعة (المريضِ: مَرضَى)، وقالوا (أسارى) فجعلوها مثل (سُكَارَى) و(كُسَالى)، لأنّ جمع (فَعلَان) الذي به علّة قد يشارك جمع (فَعِيل) وجمع (فَعِلٍ) نحو: (حَبِطٍ و حَبْطَى وحَبَاطَى) وقد قالوا: (أُسَارى) كما قالوا: (سُكَارى)[9].

لم يفرد الأخفش لموضوعات الصرف مباحث خاصّة بها إلّا أنّه يشير إليها من خلال تناولِهِ الآية، فهو يقف عند المسائل الصرفية بالتحليل والوصف، مستشهداً عليها مرةً وعارضاً إيّاها على نظائرها مرةً أخرى، ومن ذلك كلمتا (الغمام والسحاب) في قوله تعالى: (وظلّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى) [10] . فقد ذكر أنّ الغمام كالسحاب قد يأتي مفرداً وجمعاً، والغمام: واحدته غمامة، مثل السحاب واحدته سحابة.

ومنه كذلك دِفلى وسُلامَى وحَبارى وقد قالوا: سُلاميات، كما قالوا حُباريات[11].

4 – منهج الأخفش في المجال الصوتي:

عنايةُ الأخفش بالجانب الصوتي واضحةٌ، يدعوه إلى ذلك اختلاف القراءات باختلاف لغات العرب، ولذلك زخر كتابه بالكثير من الظواهر الصوتية، نختار من هذه الظواهر:

أ – ظاهرة الإدغام: ومن أمثلته ما جاء في تفسير الآية: (تَظَّاهرون عليهم بالإثْمِ والعدوانِ) [12]، يقول أبو الحسن : "فجعلها من (تَتَظاهرون) وأدغم التاء في الظاء، وبها نقرأ، وقد قرئت (تَظَاهرون) [13]مخففة بحذف التاء الآخرة لأنّها زائدة لغير معنى[14].

ب – ظاهرة المزج لتقارب المخرج:

جاء في تفسير الآية: (فما اسطَاعوا أن يظهروه) [15] يقول: " لأنّ لغة العرب تقول: اسطاع، يسطيع، يريدون به، استطاع، يستطيع، ولكن حذفوا التاء إذا جامعت الطاء، لأنّ مخرجهما واحد"[16].

---

[6] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 114.
[7] سعيد بن مسعدة، الأخفش الأوسط، معاني القرآن، 1/203-204.
[8] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 58.
[9] سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، معاني القرآن، 1/135-136.
[10] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 57.
[11] ينظر: سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، معاني القرآن، 1/101، وينظر: جلال الدّين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1987، 2/259.
[12] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 83.
[13] ينظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تح: أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت،ط$_1$ ، 2001م، 1/450.
[14] سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، معاني القرآن، 1/101.
[15] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية 97.

ت – **ظاهرة الإمالة:** ومعناها أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، فتميل الألف نحو الياء لضربٍ من تجانس الصوت[17] وقد أشار الأخفش إلى هذا في تفسير الآية: " وكنتم على شفا حفرةٍ من النارِ"[18]، فيقول " (الشّفَا) مقصورة مثل (القَفَا) وتثنيته بالواو، تقول: شَفَوان، لأنّه لا تكون فيه الإمالة، فلمّا لم تجيء فيه الإمالة عرفت أنّه من الواو".[19]

إنّ الأخفش أبدع في دراسة القرآن وفهم منهجه، فهو إمامٌ متبحّرٌ قلَّ نظيره في العربية، ولا عجب أن يكون كتابه (معاني القرآن) من أهم الكتب النحوية، فضلاً عمّا فيه من ظواهر صرفية وصوتية وغير ذلك.

1 – منهج الفرّاء في تفسير الآيات والألفاظ القرآنية:

إنّ كتاب معاني القرآن للفرّاء ليس كتاباً في تفسير الآيات القرآنية وبيان معانيها وأحكامها فحسب، بل هو كتاب تفسير نحوي ولغوي للقرآن الكريم، فالباحث عن معاني الآيات ودلالاتها قد لا يجد ضالته، وإنْ وجدها فهي غرقى في التحليلات اللغوية والشروح النحوية.

قد جاء هذا الاهتمام بتفسير بعض ألفاظ القرآن من أجل بيان معناها النحويّ، وإظهاره، ومنه تفسير بدايات بعض السّور، مثل تفسيره لسورة البقرة بقوله: " الهجاء موقوف في كلّ القرآن، وليس بجزم يسمّى جزماً، وإنّما هو كلامٌ جزمه نيّة الوقوف على كلِّ حرفٍ منه، وإنّما قرأت القرَّاءُ (آلم اللهُ) [20]، ففتحوا الميم، لأنَّ الميم كانت مجزومة لنيّة الوقفة عليها ، وإذا كان الحرف ينوى به الوقوف نوى ما بعده الاستئناف، فكانت القراءة (ا ل مَ الله)، فتركت العرب همزة الألف من (الله) فصارت فتحتها في الميم لسكونها، ولا كانت الميم جزماً مستحقّاً للجزم لكسرت، كما في قوله تعالى: (قِيلَ ادخل الجنّة يا ليتَ قومي يعلمون)[21]، وقد قرأها رجلٌ من النحويين– وهو أبو جعفر الرؤاسي وكان رجلاً صالحاً – (آلمْ أللهِ) بقطع الألف، والقراءة بطرح الهمزة"[22].

2 – منهج الفرّاء النحويّ وسمات هذا المنهج:

مما لا شكَّ فيه أنَّ أبا زكريا الفرّاء كان له مكانة مهمّة في النحو، وهو أحد النحويين الذين ألّفوا كتاباً في (معاني القرآن)، وجاءت أهمية كتابه من خلال الآراء النحويّة واللغويّة التي كثرت فيه.

لقد توسّع الفرّاء في آرائه النحويّة ، إذ تناول معظم أقسام النحو في كتابه الذي يُعدّ أول مصدرٍ للنحو الكوفيّ، وهو تفسيرٌ نحويٌ للقرآن، فقد جاء الكتاب زاخراً بالقواعد النحويّة، " فهو يهتم بالقواعد النحويّة وصياغتها، والتعريف بها، ممّا يجعل منه مرجع نحوٍ بمعناه الشامل لا كتاب إعراب وتوجيه نحويٍّ فقط"[23].

والفرّاء حرص على توسّعه في اللغة، وطرائق جمعها، فاحتجّ بالمسموع من العرب، فهو لا يرفض ذلك على خلاف البصريين الذين لا يحتجّون إلّا بمن صفت لغتهم فهو لا يتناول المسائل النحويّة تحت أبواب ذات عناوين محدّدة المعالم، وإنّما يتعرّض لها في أثناء سيره مع النّص القرآني، وإن كان – في بعض الأحيان– يقف وقفات مطوّلة مع مسألة هنا أو هناك، ثمّ يعود أدراجه للسياق القرآني[24].

---

[16] سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، معاني القرآن، 399/2.
[17] أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1990م، ط1، 512/1.
[18] القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 103.
[19] سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، معاني القرآن، 211/1.
[20] القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 1.
[21] القرآن الكريم، سورة يس، الآية 26.
[22] يحيى بن زياد الفرّاء، معاني القرآن، تح: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1955م، 9/1.
[23] ينظر: د.إبراهيم عبدالله رفيدة، النحو وكتب التفسير، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، 1984م، 202/1.
[24] ينظر: د.منير جمعة، معاني القرآن في التراث العربي، 102/1.

3 – المجال الصوتي:

مزج الفرّاء في توجيهاته بين النّحو وغيره من علوم اللغة كالصّرف الذي لقي من العناية القدر الكافي وقد تناوله في مواقف مختلفة منها الإدغام والذي يسمّيه في بعض آرائه التثقيل وذلك في قوله تعالى: (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آيةٌ كذلك قال الذين من قبلهمْ مثلَ قولهم تشابهت قلوبهم قد بَيّنا الآيات لقومٍ يوقنون) [25]، يقول: " تشابهت قلوبهم في اتفاقهم على الكفر، فجعله اشتباها، ولا يجوز الإدغام إذا قلت في الاستقبال: تتشابه (عن قليل) فتدغم التاء الثانية عند الشين"[26]. فالصرف والصوت عنده كلٌّ لا يتجزّأ.

خاتمة:

خلص البحث إلى النتائج الآتية:

– لا يوجد فروق جوهرية بين مضمون الكتابين وكلّ ما في الأمر أنّ البحث اللغوي يرتكز على السماعِ بعناصره مجتمعة أمّا البحث النحوي فيرتكز على القياس على اختلافٍ بين النحاة في طريقة استعمالهِ.

– تعليل الظواهر اللغوية عند الشيخين كان تعليلاً لغويّاً محضاً، يقوم على الحس ويستند إلى الواقع، وعلى الرّغم من أنَّ لهما باعاً في الجدل الفلسفي، إلّا أنّ هذا لم يكن له أثر يُذكر في تعليلاتهما.

– لم تكن اللغات واللهجات عند الأخفش في درجة واحدة من الفصاحة بعد الاطلاع على كامل الكتاب في حين نجد الفرّاء يكثر من الاستشهاد بها، وهذا ما يوضّح لنا أنّ المدرة الكوفية كانت تتسامح وتقبل كلّ ما رواه العرب.

– لم يبوّب الفرّاء أو يقسِّم كتابه على أبواب لها عناوين على عكس الأخفش إذ كان التبويب سائداً آنذاك.

المراجع:

1 -القرآن الكريم.

2 -الأخفش، الأوسط، سعيد بن مسعدة، معاني القرآن، تح: د. هدى قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1990م.

3 -الأنباري، أبو البركات، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر–1386هـ.

4 -الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، تح: احمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية،ط1، بيروت، 2001م.

5 -الدّمياطي، أحمد، اتحاد فضلاء البشر في القراءات الأربع عشرة، تصحيح وتعليق علي محمد الضباع، د.ت، د.ط.

6 -السيوطي، جلال الدّين، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1987م.

7 -ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1990.

8 -الفرّاء، يحيى بن زياد، معاني القرآن، تح: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1955م.

9 -جمعية، د. منير، معاني القرآن في التراث العربي، بلنسية للنشر والتوزيع، ط1، 2006م.

10 -رفيدة، إبراهيم عبدالله، النحو وكتب التّفسير، المنشأة العامّة للنشر والتّوزيع، طرابلس، 1984.

[25] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 118.

[26] يحيى بن زياد الفرّاء، معاني القرآن، 75/1.